الأهرام ملحق الجمعة
16 مايو , 2008 عدد رقم 44356

قصة الجمعة
قصة الجمعة
صور برلمانية
صوت الموسيقى
أوراق دبلوماسية
فكر ديني

لم ينضج السمك بعد ١

بقلم: إحسان كمال

نظر إليها بسخط شديد، بالأمس لم يتكلم، رغم أن طعم لحم الديك الرومي الكريه في فمه أكد أنه لم يكن(سمنا) ذلك الذي طهي به، ماذا استخدمت إذن؟ حنظل؟.. زيت ديزل؟!

خشي أن تسخر منه، لكنه اليوم لم يستطع السكوت سألها بغيظ:

ـــ هل نسيت وضع السكر؟!
ـــ كيف؟!

ـــ الشاي مر!
ـــ وضعت قطعتين كالعادة، لكنك أنت.. لست أدري والله ماذا حدث لك!..

خبط الكوب أمامها بسخط وقام.. هو لم يتغير.. لكن الدنيا هي التي تغيرت، لونها في عينيه.. طعمها في فمه.. كل شيء أصبح مرا، زوجته في فستانها الضيق أصبحت تثير اشمئزازه، مرح أولاده وصخبهم ينزل علي أم رأسه كالمطارق، يترك المنزل هاربا إلي المقهي، لكنه لايجد أصدقاءه.. احتلت كراسيهم جثث عفنة، لم يعد يحس بأية متعة أو سعادة، كره كل شيء.. كره الدنيا بأسرها ولكن.. إلي أين يهرب؟.. أين المفر؟، بيوت الله؟ لكنه في المسجد الصغير، لم يتمكن من الصلاة، لم يستطع أن يركز ذهنه،ضحك فجأة من مهرج لم يره.. لكنه أحس به داخل جلده.. يقوم ويقعد!، لماذا لم تقدح عينا الشيخ بالشرر وهو ينظر إليه؟، فقط استفسار صامت، رد عليه بسرعة:
ـــ حتي العبادة مللتها.. لم أعد أري فيها أكثر من طقوس لامعني لها!!.
بدت علي الشيخ بوادر الفهم.. هز رأسه وهو يغمغم: تسير ثقيلا..!

دهش.. قوامه نحيف، فطن الشيخ لدهشته فراح يهز رأسه:
ـــ ليس ثقل الشحم واللحم أعني، ولكن ثقل الأوراق، أوراق كثيرة تحملها علي عاتقك وتربطها إلي ساقيك فلا تستطيع السير إلا زحفا، تخفف منها تحس بالانتعاش

ضحك في قرارة نفسه باستهزاء، يريدني أن أتخلي عن أموالي لكي أصبح فقيرا مثله؟.

لكن سخطه كان في ازدياد، أحس بالأثقال تغل قدميه حتي عن الزحف، بدأ يموت ويتعفن وقلبه مازال يدق، فتح كل أدراج مكتبه وأخرج الأوراق، أوراقا كثيرة، أغلبها ملونة.. بعضها مرسومة.. وأخري مكتوبة.. بأيدي محامين ومأذونين وموظفي مكاتب الصحة والشهر العقاري، إنها لحقيبة عجيبة حقا.. تلك التي اتسعت لكل هذا، وهو بسبيل الخروج أسرعت زوجته وراءه تناديه، ياالله.. هل علمت؟.. لكن كيف؟.. علي أنه لن يرجع عما نوي مهما حاولت، رغم تجاهله إياها عادت تناديه.. فاستدار إليها.. زعقت:

ـــ اشتريت سمكا هذا الصباح، حاول أن تعود مبكرا اليوم قبل أن يبرد حتي لايثير تأففك!..

لم تنتظر رده.. عادت وهي تردف لنفسها: كأغلب ما أطهوه هذه الأيام..!

اتجه صوب المسجد علي الشاطيء والحقيبة في يده، سأل الشيخ:

ـــ هل أرمي بها إلي النهر؟

لكن الأخير لم يبد عليه أنه سمع أو فهم واستمر في مناجاته، فتح يده ولكن.. ياللعجب، لم تسقط الحقيبة، جلدها انصهر.. وجلد يده أيضا.. فالتحم الاثنان!، حاول أن يخلص إحداهما من الأخري ولكن عبثا، أصبحت يده والحقيبة شيئا واحدا، ولم يكن هناك حل غيره.. ألقي بنفسه في الماء مع الحقيبة..!

لم يسمع لارتطامه بالماء صوتا شديدا.. أذابت المياه اللحام فتخلصت يده من الحقيبة، وبدأ يطفو ويطفو.. حتي وصل إلي السطح.. خرج من الماء، لدهشته.. لم يكن بملابسه أي أثر للبلل.. ولا قطرة واحدة..!

ماهذا المكان؟ جمال ما رأي ولا سمع مثيلا له من قبل.. إلا الجنة، هل وصل إلي الجنة؟ كيف ومازال حيا يتنفس؟ حدائق وزهور وطيور وجداول بألوان ما أبدعها!، ظل يسير خفيفا سعيدا يريد أن يغني، فجأة.. فقدت الجداول والسماء زرقتها.. والحشائش خضرتها.. والورود ألوانها، تلون كل شيء بلون رمادي باهت أو لم يعد له لون علي الإطلاق..!

قرصه الجوع قرصة عنيفة، غريب أن تخلو الجنة من أي شيء يؤكل، علي بعد بدا له محل تخطف لآليء الألماس في نوافذه الأبصار، اقترب منه.. كيف رآه ألماسا ؟، محل فول.. وواجهاته من زجاج!، تقدم منه مندفعا ويده في جيبه.. ثم توقف مرة واحدة، لعنة الله علي غبائه.. ألم يكن في إمكانه أن يأخذ ولو جنيها واحدا من الآلاف التي كانت في الحقيبة؟، لكن البائع خاطبه بلطف:

ــــ جوعان؟.. فلماذا لا تأكل؟

ــــ ليس معي نقود..

نقود؟.. مامعناها؟

ــــ نقدية..فلوس.. مصاري.. برادس.. موني..!

لكن الرجل ظل علي استنكاره فسأله نافد الصبر:

أريد طبقا من الفول ورغيفا.. ماذا أدفع لك؟

ــــ تكبر لله خمسا..

هل يسخر منه الرجل؟ عموما فليجرب.. وكان، لم يأبه لشعور الامتلاء وطلب طبقا ثانيا.. ودفع كما دفع أولا، هذا الرجل مجنون ولاشك ولكن.. ما شأنه هو؟ هل من واجبه رد المجانين إلي صوابهم؟.

لم يقل ترحاب الرجل له في الغداء عنه في الإفطار، ولا في العشاء أيضا، بالعكس.. كان أكثر سرورا.. كأي بائع تروج بضاعته، ناوله الطبق مزهوا:

ــــ يبدو أنك تحب الفول جدا..!

ــــ(بالسذاجته): أحب كل شيء ولكني كما قلت لك.. ليس معي نقود.

ــــ عدت للهلوسة ثانيا!

ــــ تعني أنه.. ياالله.. هل تريد أن تقول أن الجميع هنا يبيعون بنفس عملتك؟!.

انتقم من الكباب والفاكهة لمعدته التي أثقلتها أطباق الفول، ترك النوم في الحدائق عندما علم أن أصحاب المنازل أيضا يقبضون إيجارها.. تكبيرا لله!.

عندما تمتليء الحوصلة.. ويتم تجهيز العش يبدأ التفكير في الوليف، قال له بائع الفول الذي أصبح أعز أصدقائه:

اذهب إلي الميدان الكبير يوم السوق تجد جميع فتيات المدينة، من تعجبك منهن تقدم للسلام عليها، فإن ردت السلام كان معناه أنها موافقة، بعدها تطلبها من أبيها وتدفع مهرها.. مائة تكبيرة لله..!

لم يكذب الخبر واختار أجمل فتيات البلدة، بعد الزواج جاءت الذرية.. صبيان وبنيه، كان يحس أنه أسعد مخلوق في الدنيا، فقط كانت هناك أشياء تثير دهشته وتساؤله.. لكن

أحدا لم يرد عليه قط، علي العكس..

كانت أسئلته تثير في سامعيها دهشة أضخم من دهشته، كيف يتصور أن تعاملهم بالألفاظ يجعل الناس لا يقنعون؟ هل هو يري أن الورق أغلي من الكلمات؟ وهل يعقل أن يأخذ الانسان أكثر من حاجته؟ ثم كيف يسأل هذا السؤال السخيف(لماذا يعمل الناس إذن؟) وهل هذا سؤال؟ هل يمكن أن يظل إنسان بلا عمل؟!!.

ظن يوما أنه فهم سبب دهشتهم، مجبرون قطعا ولكن.. تري ما هو هذا القانون الرهيب أو السلطة القوية التي تضطرهم برغم سهولة الحياة الفاخرة إلي العمل بكل هذه المهمة التي لا تعرف الكلل؟.

لا شك سيجيء دوره ليحاسبوه علي بطالته، لكنه ظل طويلا بعيدا عن أعين البوليس.. أو هكذا ظن، حتي اكتشف ألا ظل هناك للقانون ولا لممثليه علي الاطلاق.. رغم عدم حصوله علي رد ما.. لم يستطع أن يبتلع تساؤله:

ـ جميع المهن موجودة عداهم.. أين رجال البوليس والنيابة والقضاء؟، وكيف رغم اختفائهم يسيطر الهدوء علي المدينة فلا يرتفع فيها صوت قط؟ كيف يبدو الأمن مستتبا إلي هذه الدرجة؟!

البقية الأسبوع المقبل